مثال ذلك السجين العطشان الذى يطلب كوب ماء . ويستطيع السجّان أن يقول له : لا . ليس هناك ماء . أما إذا أراد السجان تعذيبه بأكثر من ذلك فهو يقول له : سآتى لك بالماء ويحضر له كوباً من ماء زلال ، ويمد السجين يده لكوب الماء ، لكن السجان يسكب كوب الماء أرضاً . هذا هو الابتداء المُطْمع والانتهاء المُوئس . وكذلك رغبتهم فى الخروج من النار ؛ فلا إرادة لهم فى الخروج إلا إذا كانت هناك مظنة أن يخرجوا نتيجة تقليب ألسنة اللهب لهم ، ولذلك يقول الحق أيضاً عن هؤلاء :

﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

وتثير البُشرى فى النفس الأمل فى العفو ، فيفرحون ولكن تكون النتيجة هى :

﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

وهكذا يريد لهم الحق صدمة الألم الموئس بعد الرجاء المطمع .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وبعد ذلك ينقلنا الحق إلى قوله سبحانه :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

جاء الحق من قبل بعقاب قطاع الطريق والمفسدين فى الأرض ، وهنا يأتى بقضية أخرى يريد أن يصون بها ثمرة حركة المؤمن فى مجتمعه ؛ لأن الإيمان يحب من المؤمن أن يتحرك ، وحتى يتحرك الإنسان لا بد أن يضمن الإنسان ثمرة حركته . أما إن تحرك الإنسان وجاءت الثمرة ثم جاء من يأخذها فلا بد أن يزهد المتحرك فى

الحركة ، وحين يزهد الإنسان فى الحركة يتوقف تقدم الوجود ؛ لذلك من حظنا أن تستمر حركة الحياة ، ولا تستمر حركة الحياة إلا إذا أمن الإنسان على حركته ، وأن تكون حركته فيما شرع الله .

وحين يتحرك الإنسان فيما شرع الله ويكسب من حلال ؛ فليس لأحد دخل ؛ لأن حركة هذا الإنسان تفيد المجتمع سواء أكان ذلك فى باله أم لم يكن .

وقلنا من قبل : إن الرجل الذى يملك مالاً يكتنزه يجد الحق يأمره بأن يستثمر هذا المال ؛ لأنه سبحانه أمر بفتح أبواب الخير لمن يجد المال ، فيدفع بخاطر بناء عمارة شاهقة فى قلب صاحب المال ، فيقول الرجل لنفسه : إن المال عندى مكتنز فلأبنى لنفسى عمارة ، ويزين له الحق هذا الأمر . ويفكر الرجل فى أن يبنى عمارة من عشرة طوابق وفى كل طابق أربع شقق ، وليكن إيجار كل شقة مائة جنيه . وهو حصيلة شهرية لا بأس بها .

لقد حسب الرجل المسألة وهو لا يدرى أن الله سبحانه وتعالى يقذف فى باله الخواطر ، فيُسرع ليشترى قطعة الأرض . وبعد ذلك يأتى بمن يُصمّم بنيان العمارة ومن يقوم بالبناء ، وتخرج النقود المكتنزة . وهكذا نرى أن الثرى قبل أن ينتفع بعمارته كان غيره قد انتفع بماله حتى أكثر طبقات المجتمع فقرا . ويحدث كل ذلك بمجرد الخاطر . ولكل إنسان خواطره ، فالبخيل له من يسرف فى ماله ، والكريم له من يكتنز من ماله . وإياك أن تظن أن هناك حركة فى الوجود خارجة عن إرادة الله . فالحق يقول :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة آل عمران)

وهم يفعلون ذلك لأن الذنوب تطاردهم ، فيعوضون ذلك بإصلاح أعمالهم . ولذلك نجد أن الخير إنما يأتى من المسرفين على أنفسهم فيريدون إصلاح أمورهم وليس هناك من يستطيع أن يأخذ شيئاً من وراء الله .

﴿ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

كأن الحق سبحانه وتعالى بمجرد الخواطر يدفع الناس إلى ما يريد . نعم . فهو غيب قيوّم ؛ ولذلك يكون تدبيره فى الكون غيباً . وفى قرانا يخصّصون يوماً للسّوق ونرى ساحته فى اليوم المُخصص ونتأملها فنتعجب من إبداع مُحرّك الكون ؛ ففى الصباح يسير رجال إلى السوق ومعهم عصيّهم ولا يحملون شيئاً . وهؤلاء ذاهبون لشراء ما يحتاجون إليه ، وآخرون يسوقون أمامهم العجول أو الحمير ، وهؤلاء يذهبون لبيع بضائعهم . ونرى نساء تحمل كل واحدة منهن صنفاً من الخضار فنعرف أنهن يذهبن للبيع فى السوق . ونرى أخريات يحملن سِلالاً فارغة ، ونعرف أن كلاً منهن ذاهبة للشراء . وفى آخر النهار نرى المسألة معكوسة ، من كان يحمل فى الصباح شيئاً حمله غيره ، فمن الذى هيّج الخواطر ليذهب من يرغب فى البيع إلى السوق ليبيع ؟

من الذى حرّك الشارى للشراء ؟ هو الحق سبحانه يحقق للرّاغب فى البيع أن يوجد المشترى ، ويحقق للراغب فى الشراء أن يوجد البائع . إنه ترتيب الحىّ القيّوم . ونسمع من يقول : لقد أنزلنا فى السوق اليوم عشرين طناً من الطماطم وأربعين طناً من الكوسة . وغيرها من الأطنان . ونجد آخر النهار أن كل شىء قد بيع . إنها خواطر الله المتوازنة فى الناس والتى توازن المجتمع .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى حركة المُتحرّك . ويُريد أيضاً ألاّ يقتات الإنسان أو يتمتّع بغير مجهود ؛ لأن من يسرق إنما يأخذ مجهود غيره . وهذا الفعل يُزهّدُ الغير فى العمل .

إن فى الإسلام قاعدة هى : عندما تكثر البطالة يقال لك لا تتصدق على الناس بنقود من ملكك ، ولكن افتح أى مشروع ولو لم تكن فى حاجة إليه كأن تحفر بئراً وتردمها بعد ذلك وأعط الأجير أجره حتى لا يتعوّد الإنسان على الكسل ، بل يجب تعويده على العمل ، ومن لا يقدر على العمل فلا بد له من ضمان . فضمان الإنسان لقوته يكون من عمله أولاً ، فإن لم يكن قادراً على العمل ، فضمانه من أسرته وقرابته ، فإن لم توجد له أسرة أو قرابة ، فأهل محلّته مسئولون عنه ، وإن لم يستطع أهل القرية أو المحلّة أن يوفّروا له ذلك ، فبيت المال عليه أن يتكفّل بالفقراء .

إذن فالأرضية الإيمانية تحثُّنا على أن نضمن للإنسان العمل ، أو نعوله ونقوم بما

يحتاج إليه إن كان عاجزاً . ولكن الآفة أن بعضاً من الناس يحبُّون عملاً بذاته ، فهذا يرغب في التوظّف في وظيفة لا عمل فيها ، ونقول له :

في العالم المعاصر أزمة عمالة زائدة فتعلّم أي مهارة ؛ فما ضنت الحياة أبداً على طالب قوت من عمل .

ولنا في رسول الله صلّى الله عليه وسلم الأُسْوَة حين أقام أول مزادٍ في الإسلام . عندما جاء له رجلٌ من الأنصار يسأله ، فقال له :

(أما في بيتك شيء . قال الرجل : بلى ، حِلْسٌ نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقَعْبٌ - أي قدح - نشرب فيه من الماء . قال : إيتني بهما . فأتاه بهما . فأخذهما رسول الله صلّى الله عليه وسلم بيده وقال : من يشتري هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم . قال : من يزيد على درهم ؟ - مرتين أو ثلاثاً - قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين . فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين وأعطاهما للأنصاري وقال : اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه - أي ألقِهِ - إلى أهلك ، واشتر بالآخر قَدُوماً فائتني به)[1] .

إذن أشار النبي صلّى الله عليه وسلم على الرجل وأمره بأن يحضر الحِلْس الذي ينام عليه والقدح الذي يشرب فيه ، حتى يعرف الرجل أنه تَاجَر في شيء يملكه ، لا في عطاء من أحد . وجاء الرجل إلى حضرة النبي عليه الصلاة والسلام ووجد أن النبي قد سوّى له يداً للقدوم وقال للرجل :

(اذهب فاحتطب وبعْ ، ولا أرينَّك خمسة عشر يوماً)[2] .

وذهب الرجل يحتطب ويبيع امتثالاً لأمرالنبي صلّى الله عليه وسلم وجاء بعد خمسة عشر يوماً وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً .

فقال النبي صلّى الله عليه وسلم :

(هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة)[3] .

---

(١) رواه أبو داود في الزكاة ، وابن ماجه في التجارات ورواه أحمد .

(٢) ، (٣) رواه أحمد وأبو داود في الزكاة وابن ماجه في التجارات .

هذه هى التربية .

إذن فالغرض الأساسى أن يحمى الإسلام أفراد المجتمع ، فالذى لا يجد قُوتَه نساعده بالرأى وبالعلم والقدرة والقوة . والخير أن نعلّمهم أن يعملوا لأنفسهم . ولذلك جاء الحق لنا بقصة ذى القرنين المليئة بالعِبَر :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أى أنه لا توجد صلة للتفاهم . ولكنهم قالوا :

﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وها هو ذو القرنين يعلن أنه فى غير حاجة إليهم ، ولكن يكلفهم بعمل حتى يحقق لهم مُرادهم :

﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومن العجيب أن القرآن عندما يحكى أمراً فهو لا يحكيه إلا لهدف ، هم طلبوا من ذى القرنين أن يبنى سدّاً ، لكنه اقترح أن يجعل لهم رَدماً ، ما الفرق ؟ لقد تبين من العلم الحديث أن السّدّ قد تحدث له هزّة من أى جانب فينهدم كله ، أما الرَّدْم فإن حدثت له هزّة يزددْ تماسكاً . ولم يعمل ذو القرنين لهم ، ولكن علّمهم كيف يصنعون الرَّدْم ، وذلك حتى لا يعيشوا مع الإحساس بالعجز . وهكذا يُعلمنا القرآن أن الإنسان لا بد له من عمل . لكن ماذا إن سَرَق ؟ .

أولاً ما هى السَّرقة ؟ إنها أخذُ مالٍ مقوّم خفية . فإن لم يكن الأخذ خفية فهو اغتصاب ، ومرة أخرى يكون خطفاً ، ومرة رابعة يكون اختلاساً .

فالأَخْذُ له أنواع مُتعددة ؛ فالتاجر الذى يقف فى دكانه ليبيع أى شىء ، وجاء طفلٌ صغير وخطف قطعةً من الحلوى وجرى ولا يستطيع التاجر أن يطول الطفل أو أن يقدر على الإمساك به ، هذا خَطْف . أما الذى يغتصب فهو الذى قهر صاحب الشىء على أن يتركه له . أما الاختلاس فهو أن يكون هناك إنسان أمين على مال فيأخذ منه ، أما السرقة فهى أخذ لمال مقوَّم خفية وأن يكون فى حرز مثله ؛ أى يكون فى مكان لا يمكن لغير المالك أن يدخله أو يتصرف فيه إلا بإذنه . أما الذى يترك بابه مفتوحاً أو يترك بضاعته فى الشارع فهو المُقصِّر ، فكما يأمرنا الشرع بألا يسرق أحد أحداً ، كذلك يأمر بعدم الإهمال ، بل لابد للإنسان أن يعقل أشياءه ويتوكَّل . وسبحانه هو المُشرِّع العَدْل الذى يُقيم اليقظة على الجانبين . حدَّد الشَّرع السرقة بما قيمته ربع دينار . وربع الدينار فى ذلك الزمن كان يكفى لأن يأكل إنسان هو وعياله ويزيد ، بل إن الدرهم كان يكفى أن يقيم أود أسرة فى ذلك الوقت .

وكيف نقوِّم ربع الدينار فى زماننا ؟ . إن كان لا يكفى لمعيشة ، فيجب أن ترفع النصاب إلى ما يُعيش ، ومادام الدينار كان فى ذلك الزمان ذهباً ؛ فربع الدينار ترتفع قيمته . وقديماً كان الجنيه الذهب يساوى سبعة وتسعين قرشاً ونصف القرش . أما الجنيه الذهب حاليا فهو يساوى أكثر من مائتين وسبعين جنيهاً ، وقد يكون هناك إنسان يسرق لأنه محتاج أو جائع ، ولذلك وضع الشرع له قدرا لا يتجاوزه المحتاج لحفظ حياته وحياة من يعول هو الدرهم . وسرقة الدرهم لا حد فيها كما لا إثم فيها ، وذلك إذا استنفذ كل الطرق المشروعة فى الحصول على القوت ، ونعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى الدرهم للرجل وقال :

(اشتر طعاماً لك ولأسرتك) .

وكان الدرهم ـ كما قلنا ـ يكفى فى ذلك الزمن . والدرهم جزء من اثنى عشر جزءا من الدينار ، فربع الدينار ثلاثة دراهم ، والدرهم يساوى فى زمننا هذا أكثر من عشرين جنيها .

والسطحيون يقولون : إن سيدنا عمر ألغى حَدّ السَّرقة فى عام الرَّمادة ؛ ونقول لهم : لا . لم يسقط عمر بن الخطاب الحد ، فالحد باقٍ ولكنه لم يدخل الحادثة التى حصلت فيها يوجب الحد . والحادثة التى حدثت فى عام الرمادة أو عام الجوع هى

وجود الشبهة . وبفطنته كأول أمير للمؤمنين ، لم يدخل الحوادث فيما يوجب الحد .
وفى مسألة عبدالرحمن بن حاطب بن أبى بلتعة . عندما سرق غلمانه ، فماذا حدث ؟
قال الغلمان لعمر : كنا جوعى ولم يكن ابن أبى بلتعة يعطينا الطعام . ودرأ سيدنا
عمر الحَدَّ بالشُّبهة .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى حركة المتحرك وثمرة حركة المتحرك . ، لكن بعض السطحيين فى الفهم يقولون مثل ما قال المعرّى :

يد بخمس مئين عسجد وُدِيَتْ
ما بالها قطعت فى ربع دينار
تناقضٌ مالنا إلا السكوت له
وأن نعوذ بمولانا من النار

وهنا ردّ عليه العالِم المؤمن فقال :

أنت تعترض لأننا نعطى دية اليَد خمسمائة دينار ، وعندما يسرق إنسان . نقطع يد السارق لأنها أخذت ربع دينار .

وقال العالم المؤمن :

عِز الأمانة أغلاها وأرخصها
ذُل الخيانة فافهم حكمة البارى

ونلاحظ أن التشريعات الجنائية وتشريعات العقوبات ليست تشريعات بشرية ، لكنها تشريعات فى منتهى الدقة . بالله لو أن مُقنّنا يقنن للسارق أو السارقة ، ويُقنّن للزانى والزانية ماذا يكون الموقف ؟

إن الذى يتكلم هو رب العالمين ، فقال هنا : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » . والسرقة عادة ما تكون رغبة فى الحاجة وهى غالبا ما تكون من عمل الرجل . أما فى الزانى والزانية ، فلو أن الرجل لم يُهَيج ويستثر بجمال امرأة لما فكر فى الزِّنا . إذن فهى صاحبة البا ية . وينص سبحَانه على العقوبة وجاء بالحكمة . وعندما يُشرع للقصاص وهى الحالة التى يغلى فيها دم أقارب القتيل ، فيقول :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

ولنر الحَنانَ الموجود فى كلمة « أخيه » . ولا نجد تقنينا يدخل التحنين بين سطوره ، إلا تقنين الرَّب الذى خلق الإنسان وهو أعلم به .

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » . هذا ما انتهى إليه حَد السَّرقة فى تشريعات السماء ، وحتى فى زمن سيدنا موسى كان السَّارق يُستَرَق بسرقته ؛ أى يتحوَّل الحُرّ إلى عَبد نتيجة سرقته . ولذلك نلاحظ ونحن نقرأ سورة سيدنا يوسف :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة يوسف)

و« السقاية » هى الإناء الذى كان يشرب فيه الملك ، وكان اسمها « صواع الملك » ، وأخذوها ليكيلوا بها . وبعد أن جعل السقاية فى رحل أخيه ، ماذا حدث ؟

﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وهنا قال إخوة يوسف بأنهم لم يأتوا ليفسدوا فى الأرض ، لذلك ترك لهم يوسف الأسلوب فى تحديد الجزاء ، ولم يحاكمهم بشرع الملك :

﴿ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

لقد جعلهم يعترفون ، ويحاكمهم حسب شريعتهم لأن شرع الملك أن من يسرق شيئا عليه أن يغرم ضعفى ما أخذ .

وهذا ما يوضح معنى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة يوسف)

أى أنها حيلة ليستبقى يوسف أخاه معه . ولو استعمل قانون مصر فى ذلك الزمن لما أخذ أخاه معه . وهذا كيد لصالح يوسف ؛ لأن « اللام » تفيد الملكية أو النفعية . وأضاف إخوة يوسف قائلين :

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٧ سورة يوسف)

ولماذا قالوا ذلك ؟ أصل هذه المسألة أن يوسف كان يحيا عند عمته . وعندما كبر وأرادوا أن يأخذوه أرادت العمة أن تستبقيه فدست فى متاعه تمثالاً . أو منطقة كانت لها من أبيها إسحاق وادعت أنها فقدت ذلك ؛ ففتشوا الولد فعثروا معه على الشيء الذى ادعت عمته سرقته فاستبقته بشرع بنى إسرائيل . وكان جزاء السرقة فى الشريعة هو الاسترقاق . ونُسخ هذا الشرع وجاءت آية حد السرقة تأكيداً للنسخ . وإن لم يكن قد نُسخ فهذه الآية هى بداية للنسخ . « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » .

والسُّنة هى التى تبين لنا كيفية القطع ، وكان القطع لليد اليمنى؛لأنها عادة التى تباشر مثل ذلك العمل . وفى إحدى رحلاتى إلى أمريكا ، حدثنى أخ مسلم ضمن جماعة تحضر إحدى محاضراتى وقال : إن التَّيمُّن يجب أن يكون فى كل شيء ، فلماذا يأكل البعض بيده اليسرى ؟

قلت : إن هذه مسألة تكوينية بدليل أن بعض الناس أجهزتها تختلف ، فليست المسألة ميكانيكية . وأضفت : إن من خيبة بعض الاختراعات البشرية أنها لا تخطىء كالحاسب الآلى . ولو كان ينتقى ويختار لأمكن أن يخطىء ، أما العقل فهو يعرف الانتقاء . وقلت : إننى أطلب من السائل أن يقف . فلما وقف طلبت منه أن يتقدم جهتى فلما تقدم جهتى مَد رجله اليمنى ، فقلت تعليقا على هذا : « إنه تكوين خلقى » . ولذلك فالذى عنده ولد تتأبى عليه يمينه فإياك أن تُرغِمه على ذلك لأن مثل هذه العملية أرادها الخالق لتَشُذّ فى الخلق ، ولتظهر قدرة الخالق .

فلا داعى لقهر الابن الذى تتأبى عليه يَمينه ؛ لأن العلماء قالوا إن مراكز السيطرة ليست فى اليد ولكن فى المخ . وقد أوجد الحق تلك الأمور فى الكون حتى نفهم أن

خالق الكون لم يخلق الكون وتركه بسننه ، لا . إنه يخرق السنن كلما أراد . لكن لو تأبى إنسان على استعمال اليد اليمنى فى الأكل مثلا وهو قادر على ذلك فإنه يكون مخالفا لسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومجافيا للفطرة .

« فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا » وإذا سمعنا كلمة « كسب » فهى تعنى الأخذ لأكثر من رأس المال . والسارق يكسب السيئة لأنه أخذ ما فوق الضرورة . والنكال : العقاب أو هو العبرة المانعة من وقوع الجرم سواءً لمن ارتكب الجريمة وكذلك لمن يراها . والحق يقول عن بعض الأمور :

﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٢ سورة النور)

وضرورة الإعلان عن تنفيذ عقوبة الفعل المؤثِّم من أجل الاعتبار والعظة ، فالتشريع ليس من بشر لبشر ، إنما تشريع خالق لمخلوق . والخالق هو الذى صنع الصنعة فلا تتعالم على خالق الصنعة . والشريعة لا تقرر مثل هذا العقاب رغبة فى قطع الأيدى ، بل تريد أن تمنع قطع الأيادى .

وإن ظل التشريع على الورق دون تطبيق فلن يرتدع أحد . والذين قالوا « قطع الأيدى فعل وحشى » ، نقول لهم : إن يداً واحدة قطعت فى السعودية فامتنعت كل سرقة . وإذا كان القتل أنفى للقتل ؛ فالقطع أنفي للقطع ، أما عن مسألة التشويه التى يطنطنون بها فحادثة سيارة واحدة تشوه عدداً من الناس وكذلك حادثة انفجار لأنبوبة « بوتاجاز » تفعل أكثر من ذلك . فلا تنظروا إلى القصاص مفصولاً عن السرقة إن انتشرت فى المجتمع . وإبطاء القائمين على الأمر للإجراءات التى يترتب عليها العقوبات يُنسى المجتمع بشاعة الجريمة الأولى ، وعندما يحين وقت محاكمة المُجرم تكون الرحمة موجودة .

لكن إن وُقِّعَ العقاب سَاعَة الجُرم تنته المسألة . وساعة يسمع اللصوص أننا سنقطع يد السارق ، سيفكر كل منهم قبل أن يسرق ولا يرتكب الجُرم ؛ لأن المُراد من الجزاء العبرة والعِظة ومقصد من مقاصد التربية وتذكرة للإنسان بمطلوبات الله عنده إن أخذته الغفلة فى سياسة الحياة فالجزاء هنا نكالا أى عقابا و« نكولا » وهو

الرجوع عن فعل الذنب أى العبرة المانعة من وقوع الجُرم . فكأن الجزاء كان المقصود منه أن يرى الإنسان من قطعت يده فيمتنع عن التفكير فى مثل ما آلت إليه هذه الحالة .

أو أن يحافظ الذى قُطعت يده على ما بقى من جوارحه الباقية ؛ لأنه قد قُطِعت يمينه وإن عاد قُطِعت يساره ، فإن عاد قُطِعت رجله اليمنى ثم إن عاد قطعت رجله اليسرى ويكون النكال لمنع الرجوع للجريمة ، وهو إما رجوع ممن رأى العقوبة تقع على السارق أو الرجوع من السارق نفسه إن رأى أى جارحة من جوارحه قد نقصت. فيحرص أن تظل الجوارح الباقية له . ويعامل الحق خلقه بسُنة كونية هى : أن من يأخذ غير حقه يُحَرم من حَقه . ومثال ذلك قوم من بنى إسرائيل قال الله حكما فيهم : لقد استحللتم ما حرمته عليكم فلا جزاء لكم إلا أن أضيق عليكم وأحرم عليكم ما أحللت لكم . فقال :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

إذن ليس فى قدرة أحد أن يضحك على الله أو أن يخدع الله أو أن يأخذ ما ليس حقا له . فإن أسرف الإنسان فى تعاطى أشياء حرمها الله عليه فسيأتى وقت يحرمه الله فيه من أشياء حللها له كالذى أسرف فى شُرب الخمر أو فى تناول المواد المخدِّرة التى تغيب عن الوعى ، يبتليه الحق بما يجعله محروماً من مُتع أخرى كانت حلالا . وإن أسرف الإنسان مثلا فى تناول الحلوى . فإن المرض يأتيه ، ويحرم الله عليه أشياء كثيرة .

ولو قاس المسرف على نفسه ما أحله لنفسه بما حرمه الله عليه لوجد الصفقة بالنسبة له خاسرة . فالذى أسرف بغير حق فى أن يأكل مال أحد ، يرى ماله وهو يضيع أمام عينيه . ولنا فى ذلك المثل . كان السادة فى الريف ـ قديما ـ يقومون بتنقية الدقيق إلى درجة عالية حتى يصبح فى تمام النقاء من « الردة » . ويسمون هذا النوع من الدقيق « الدقيق العَلاَمَة » وكانوا يأكلون منه ويتركون البقية من الدقيق مختلطا بالردة ليأكله الخدم أو الفقراء ، فتأتى فترة يُحرِم الأطباء عليهم هذا الدقيق الأبيض ، ولا يجد الواحد منهم طعاما إلا الدقيق « السِّن » الذى كان يرفضه قديما فعلينا ـ إذن ـ أن ننظر إليها كقضية سائدة فى الكون كله ، ولنجعل قول الله أمامنا :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فأنت إن أخذت كسب يد واحدة يحرمك الحق من يدٍ لا من كسب . فإن زدت حرمك الله من جارحة أخرى ، وهكذا . وتلك سُنّة كونية تعدل نظام الكون بالنسبة للناس ، وخصوصا من يستبطئون جزاء الآخرة ، ومن يُغريهم ويَغُرهم ويطمعهم حِلْم الله عليهم .

وأنت إذا ما نظرت وصنعت لنفسك رُقعة جغرافية فى البيئة التى تعيش فيها فى أسرتك ، أو حيك ، أو بلدك أو أمتك ، فأنت تجد قوما قد حرموا بأنفسهم من غير أن يحرم عليهم أحد ، فتجد واحداً مصاباً ـ والعياذ بالله ـ بالبولينا : ولا يقدر أن يأكل قطعة من اللحم ، أو آخر مصابا بمرض السكر ؛ وتراه غير قادر على أن يأكل قطعة من الحلوى ، أو ملعقة من العسل . لأن أحداً لن يستطيع أن يأخذ شيئا بدون علم الله . وصنع الله ذلك لأنه عزيز لا يُغلَب . فإياك أن تظن أن بإمكانك أخذ شيء من وراء شرع الله أو تظن انك خدعت شرع الله ، فهو سبحانه عزيز لا يُغلَب أبداً . ونرى فى حياتنا الذين يأخذون أموالاً بغير حق رشوةً أو سرقةً أو اختلاساً ، نرى مصارف هذه الأشياء أو الرشاوى أو الأموال قد ذهبت وأنفقت فى مهالك ومصائب ؛ إننا نجدها قد أخذت ما أخذوه من حرام ،ومالت وجارت على ما كسبوه من حلال . وأريد من المسرفين على أنفسهم أن يضعوا لأنفسهم كشف حساب ، فيكتبوا فى ناحية القرش الذى كسبوه من حرام ، ويكتبوا فى ناحية أخرى كل قرش كسبوه من حلال . وليشاهد كل مسرف على نفسه فى أكل حقوق الناس المصائب التى سيبتليه الله بها ، ولسوف يجد أنه قد صرف لمواجهة المصائب كل الحرام وبعضا من الحلال . ولذلك قال الأثر الصالح : « من أصاب مالا من نهاوش أذهبه الله فى نهابر »[1] .

وكنت أعرف اثنين من الناس ، ولكل واحد منهما ولد فى التعليم . وكنت أجد أحدهما يعطى ولده خمسة قروش . فيقول الابن لأبيه : « معى مصروف الأمس » .

(١) رواه القضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعا ، وعزاه الديلمى ليحيى بن جابر وليس صحابيا ، والمعنى من أصاب مالا من غير حله أذهبه الله فى مهالك وأمور متبدّدة .

وكان الآخر يعطى ولده عشرة قروش فيقول الابن له : « إنها لا تكفى شيئاً » . وشاء الحق أن يجمعنا نحن الثلاثة فى مكتب يتبع وزارة الرى بالزقازيق ، فلما جئنا لنخرج إذا برئيس كتاب تلك المصلحة يأتى بظرف أصفر كبير به أشياء كثيرة ويناوله لواحد منهما ، فسألته : ما هذا ؟ فقال : بعض من الورق الأبيض وبعض من ورق النشاف وعدد من الأقلام حتى يكتب الأولاد واجبهم المدرسى . فقلت له : هذا سر خيبة أولادك الدراسية وإسرافهم والدروس الخصوصية التى تدفع فيها فوق ما تطيق وسر قول ابنك لك : إن القروش العشرة لا تكفى شيئا . أما الشخص الآخر فابنه يقول له : لا أريد مصروف يد اليوم لأن معى خمسة قروش هى مصروف أمس ولا أريد أن آخذ دروسا خصوصية لأنى أحب الاعتماد على نفسى .

وسبحانه الحق القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . ويقول لنا بلاغا :

قال أبو الجلد : « أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء : قل لقومك : ما بالكم تسترون الذنوب من خلقى وتظهرونها لى ؟ إن كنتم ترون أنى لا أراكم فأنتم مشركون بى ، وإن كنتم ترون أنى أراكم فَلِمَ تجعلوننى أهون الناظرين إليكم »[1] .

إذن قوله الحق : « جزاء بما كسبا نكالا من الله » واضح تماما ، ويردف الحق قوله هذا : « والله عزيز حكيم » . وسبحانه عزيز لا يغلبه أحد ، حتى الذى يسرق ، إنما يسرق الرزق المكتوب له ؛ لأن العلماء اتفقوا على أن الشىء المسروق رزق أيضا لأنه يُنتفَع به . ووالله لو صبر لجاءه وطرق عليه بابه . فإياكم أن تحتالوا على قدر الله ؛ لأنه حكيم فى تقديره .

وكلمة « حكيم » لها فى حياتنا قصة ، كنا ونحن فى مقتبل حياتنا التعليمية نحب الأدب والشعر والشعراء ، وبعد أن قرأنا للمعرى وجدنا عنده بعضا من الشعر يؤول إلى الإلحاد ، فزهدنا فيه وخصوصا عندما قرأنا قوله فى قصيدته :

تحطمنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

(١) أورده ابن رجب فى شرحه فى كتاب (جامع العلوم والحكم) .

وأخذنا من ذلك القول أنه ينكر البعث ؛ فقلنا : يغنينا الله عنه . ولكن صديقنا الشيخ فهمى عبداللطيف ـ رحمه الله ـ رأى المعرى فى الرؤيا وكان مولعا بالمعرى ، فجاء إلى ذات صباح ونحن فى الزقازيق وقال لى : يا شيخ لقد رأيت المعرى الليلة فى الرؤيا وهو غاضب منك أنت لأنك جفوته . فقلت : أنا جفوته لكذا وكذا وأنت تعلم السبب فى ذلك . وقال الشيخ فهمى عبداللطيف : هذا ما حصل .

وقلت لنفسى : يجب أن أعيد حسابى مع المعرى ، وجئنا بدواوينه « سقط الزند » و« لزوم ما لا يلزم » . ووجدنا أن للرجل عُذراً فى أن يعتب علينا ؛ لأن آفة الناس الذين يسجلون خواطر أصحاب الفكر أنهم لا ينظرون إلى تأريخ مقولاتهم ، وقد قال المعرى قوله الذى أنكره عليه وقت أن كان شابا مفتونا بفكره وعندما نضج قال عكسه . وكثير من المفكرين يمرون بذلك ، مثل طه حسين والعقاد ، بدأ كل منهما الحياة بكلام قد يؤول إلى الإلحاد ولكنهما كتبا بعد النضج ما يحمل عطر الإيمان الصحيح ؛ لذلك لا يصح لمن يحكم عليهم أن يأخذهم بأوليات خواطرهم التى بدأوها بالشك حتى يصلوا إلى اليقين . وجلست أبحث فى المعرى الذى قال :

تحطمنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

فوجدته هو نفسه الذى قال بعد أن ذهبت عنه المراهقة الفكرية :

زعم المنجم والطبيب كلاهما
لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر
أو صح قولى فالخسار عليكما

كأنه عاد إلى حظيرة الإيمان :

وكذلك قال المعرى :

يد بخمس مئين عسجد وُدِيَتْ
ما بالها قُطِعَتْ فى ربع دينار

وقال بعد ذلك :

تناقض ما لنا إلا السكوت له
وأن نعوذ بمولانا من النار

وقلت للشيخ فهمى عبداللطيف : للمعرى حق فى العتاب وسأحاول أن أعاود قراءة شعره ، والأبيات التى أرى فيها خروجا سأعدلها قليلا . وعندما جئت إلى ذلك البيت . قلت : لو أنه قال ـ وأنا أستأذنه ـ :

لحكمة ما لنا إلا الرضاء بها
وأن نعوذ بمولانا من النار

فلكل شىء حكمة . وحين نرى طبيباً يمسك طفلا قلبه لا يتحمل المُرقد ـ أى البنج ـ أثناء إجراء عملية جراحية ، فهل يظن ظان أن الطبيب ينتقم من هذا الطفل ؟ طبعا لا ، إذن فلكل شىء حكمة ، ويجب أن ننظر إلى الشىء وأن نربطه بحكمته . والله عزيز أى لا يغلبه أحد ولا يحتال عليه أحد . وهو حكيم فيما يضع من عقوبات للجرائم ؛ لأنه يزن المجتمع نفسه بميزان العدالة . ومن بعد ذلك يفتح الحق سبحانه باب التوبة رحمة لمن يتوب ورحمة للمجتمع ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩ ﴾

والسارق ظالم ، لأنه أخذ حق غيره ، فإن تاب أى ندم على الفعل وعزم على ألا يعود شريطة ألا تكون التوبة بالكلام فقط ، بل يصلح ما أفسده ، هنا تقبل التوبة . ولكن كيف يفعل ذلك ؟

إذا كان الشىء المسروق فى حوزته فعليه أن يرده إلى صاحبه . وإن كان قد تصرف

فيه فعليه أن يأتى لصاحب الشيء ويستحله ويقول له : كنت فى غفلة نفسى وفى زهوة الشيطان منى ففعلت كذا وكذا . وأعتقد أن أى إنسان سرق من إنسان آخر وبعد فترة اعترف له وطلب العفو منه فأنا أقسم بالله أنه سيعفو عنه راضيا . وبذلك يستحل الشيء الذى أخذه . لكن ماذا إن كان السارق لا يعرف صاحب الشيء المسروق . كلص « الأتوبيسات » ؟

إن كان قد سرق محفظة نقود من شخص ووجد العنوان يستطيع أن يرد الشيء المسروق بحوالة بريدية من مجهول تحمل قيمة المبلغ المسروق ويطلب فيها السماح عن السرقة . وإن لم يعرف من سرقه فعليه أن يقول : الله أعلم بصاحب هذا المبلغ وأنا سأتصدق به فى سبيل الله وأقول : يارب ثوابه لصاحبه .

إذن فوجوه الإصلاح كثيرة . وإن كان يخجل من رد الشيء المسروق فليقل : فُضُوح الدنيا أهون من فُضُوح الآخرة . وفى القرآن تأتى آيات كثيرة عن التوبة :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

كأن توبة الله مكتوبة أولا ، ثم يتوب العبد من بعد ذلك . وسبحانه يقول :

﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة طه)

وللتوبة ـ كما نعلم ـ ثلاث مراحل . فالحق حين شرع التوبة كان ذلك إذنًا بها . وبعد ذلك يتوب العبد ، فيتوب الله عليه ويمحو عنه الذنب ويكون الغفران بقبول الله للتوبة . ولذلك يقول الحق : « فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم » .

وَصِفَةُ المغفرة وصِفَةُ الرحمة كل فى مطلقها تَكُون لله وحده ، وهى توبة للجانى ورحمة للمجنى عليه . وكلمة « إن الله غفور رحيم » توضح لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة فى أن يغفر وأن يرحم . فإياك أن تقول : إن فلانا لا يستحق المغفرة والرحمة ؛ لأنه سبحانه مالك السماء والأرض ، وهو الذى أعطى للبشر ما يستحقون بالحق الذى أوجبه على نفسه ، وله طلاقة القدرة فى الكون ؛ ولذلك يقول من بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

ويستخدم الحق سبحانه من أساليب البيان ما يخرجنا عن الغفلة ، فلم يقل : « الله له ملك السموات والأرض » ، ولو كان قد قال ذلك لكان الأمر خبَراً من المتكلم وهو الله ، ولكنه يريد أن يكون الخبر من المُخاطَب إقراراً من العبد . ولا يخرج الخَبَر مَخرج الاستفهام إلا وقائل الخبر واثِقٌ من أن جواب الاستفهام فى صالحه ؛ والمثال على هذا هو أن يأتيك إنسان ويقول : « أنت تهملنى » . فتقول : أنا أحسنت إليك .

ولكن إن أردت أن تستخرج الخَبَر منه فأنت تقول : ألم أُحسِن إليك ؟ وبذلك تستفهم منه ، والاستفهام يريد جوابا . فكأن المسئول حين يجيب عليه أن يدير ذهنه فى كل مجال ولا يجد إلا أن يقول : نعم أنت أحسنت إلىّ . ولو جاء ذلك من المتكلم لكانت دعوى ، لكن إن جاءت من المُخاطَب فهى إقرار ، ومثال ذلك قول الحق :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الشرح)

إنه خَبرٌ من المتكلم والإقرار من المتلقى . وقد يقول قائل ولماذا لم يقل الحق : « أشرحنا لك صدرك » ؟ كان من الممكن ذلك ، ولكن الحق لم يقلها حتى لا يكون فى السؤال إيحاء بجواب الإثبات بل جاءت بالنفى .

وفى وقوله الحق :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

نجد منطوق الآية ليس دعوى من الحق ، ولكنه استفهام للخلق ليديروا الجواب على هذا ، فلا يجدوا جواباً إلا أن يقولوا : « لله ملك السموات والأرض » . وهذا أسلوب لإثبات الحجة والإقرار من العباد ، لا إخباراً من الحق : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » ، وقد يقول إنسان : إن هناك أجزاء من الأرض ملكا للبشر . ونقول : صحيح أن فى الأرض أجزاء هى ملك للبشر ، ولكن هناك فرق بين أن يملك إنسان ما لا يقدر على الاحتفاظ به . . كملك البيت والأرض ، إنه مِلْك - بكسر الميم - لمالك . وهناك « مُلْك » - بضم الميم - لِمَلِكٍ هو الله . وفى الدنيا نجد أن لكل إنسان ملكية ما . ولكن المَلِك فى الأرض يملك القرار فى أملاك شعبه ، وهذا فى دنياالأسباب ، أما فى الآخرة فالأسباب كلها تمتنع :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

فلا أحد له مُلكٌ يوم القيامة .

« ألم تعلم أن الله له مُلك السموات والأرض يُعذّب من يشاء ويغفر لمن يشاء » والقارىء بإمعان للقرآن يجد فيه عبارات تجمع بين أمرين أحدهما يتقدم ، والآخر يتأخر . ويأتى الأمر فى أحيان أخرى بالعكس . ولكن هذا القول هو الوحيد فى القرآن الذى يأتى على هذا النسق ، فكل ما جاء فى القرآن يكون الغفران مقدّماً على العذاب ؛ لأن الحق سبحانه قال فى الحديث القدسى :

(إن رَحمتى سبقت غَضبى)[1] .

فلماذا جاء العذاب فى هذه الآية مقدماً على الغُفران : « يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء » هل السبب هو التَّفنّن فى الأساليب ؟ لا ؛ لأن جمهرة الآيات تأتى بالغفران أولاً ، ثم بالوعيد بالعذاب لمن يشاء سبحانه . ولننظر إلى السّياق . جاء الحديث أولاً عن السارق والسارقة ، وبعد ذلك عمّن تاب . فالسرقة إذن تقتضى التعذيب ، والتوبة تقتضى المغفرة ، إذن فالترتيب هنا منطقى .

(١) رواه البخارى فى التوحيد وبدء الخلق ، ورواه مسلم فى التوبة ورواه الترمذى فى الدعوات ، وابن ماجه فى المقدمة .

ونلحظ أن هذا القول قد جاء بعد آية السرقة وبعد آية الإعلام بأن له مُلْكَ السموات والأرض . ولذلك كان لا بد من تذييل يخدم الاثنين معاً . ليؤكد سيطرة القدرة . وحين يريد الحق أن يرحم واحداً . فليس فى قدرة المرحوم أن يقول : « لا أريد الرحمة » . وحين يعذب واحداً لن يقول المعذَّب ـ بفتح الذال ـ : « لا داعى للعذاب » . فسيطرة القدرة تؤكد أنه لا قدرة لأحد على رَدّ العذاب أو الرحمة . إذن فالآية قد جاءت لتخدم أغراضاً مُتعددة . فإن حسبناها فى ميزان الأحداث فللحق كل القدرة . وإن حسبناها فى ميزان الزمن ، فكيف يكون الأمر ؟ .

نعرف أن التعذيب للسّرقة قسمان . . تعذيب بإقامة الحَدّ ، وفى الآخرة تكون المغفرة . إذن فالكلام منطقى مُتسق .

إننى أقول دائماً : إياكم أن تُخدَعوا بأن الكافر يكفر ، والعاصى يعصى دون أن ينال عقابه ؛ لأن من تعوّد أن يتأبى على منهج الله ، فيكفر أو يعصى لا بد له من عقاب . لقد تمرّدَ على المنهج ، ولكنه لا يجرؤ على التمرُّد على الله .

إن الإنسان قد يتمرد على المنهج فلا يؤمن أو لا يقيم الصلاة ، لكن لا قدرة لإنسان أن يتمرّد على الله ، لأنه لا أحد يقدر على أن يقف فى مواجهة الموت ، وهو بعضٌ من قُدْرةِ الله . وسبحانه وتعالى يحكم ما يريد . وقد أراد أن يوجِد للإنسان اختياراً فى أشياء ، وأن يقهر الإنسان على أشياء ، فيا من مرّنت نفسك على التمردّ على منهج الله عليك أن تحاول أن تتمرّد على صاحب المنهج وهو الله . ولن تستطيع لا فى شكلك ولا لونك ولا صحتك ولا ميعاد موتك . وليفتح كل مُتمرِّد أذنيه ، وليعرف أنه لن يقدر على أن يَتمرَّد على صاحب المنهج وهو الله . إذن صدق قول الله : « والله على كل شىء قدير » .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ

فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ
تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ
لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ
يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ
أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن
يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ
لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

نأتي في النِّداء بحرف الإقبال وهو « يا » وندخله على « المُنادى » أي أنك تطلب إقباله . فهل نطلب إقباله لمجرد الإقبال أو لشيء آخر ؟ مثال ذلك قول الحق :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

إذن النِّداء هنا لتلاوة التكليف عليهم . وحين يُنادي الحق سبحانه وتعالى أشرف من ناداهم وهم رُسُله ، نجد أنه نادى كل الرُّسل بمُشخصاتهم العَلَمِيَّة . (يا آدم) ، والمُشخص العَلَمي هو الاسم ، وهو لا يعطي وصفاً إلا تشخيص الذات بدون صفاتها .

وكذلك نادى الحق إبراهيم عليه السلام :

﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾

(سورة الصافات)

وكذلك نادى الحق نوحاً :

﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

وكذلك نادى الحق موسى عليه السلام :

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

وكذلك نادى الحق عيسى ابن مريم عليه السلام :

﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

كُل الرُّسُل ناداهم الحق بالمُشَخِّص العَلَمى الذى لا يعطى إلا التشخيص ، ولكن رسول الله صلّى الله عليه وسلم خاتم الرُّسُل ما ناداه الله باسمه أبداً ، إنما ناداه الله بالوصف الزائد عن مُشَخِّصات الذات فيقول : (يا أيُّها الرسول) ، ويقول : (يا أيُّها النبى) .

حقًّا إنّ الجميع رُسُل ، ولكنه سبحانه يريد أن يبلغنا أن محمداً صلّى الله عليه وسلم هو الرسول الذى جاء ناسخاً للكُلّ ومؤمناً بالكُلّ ، هو الذى يستحق النّداء بالوصف الزائد عن مُشَخّصات الذات : « يا أيُّها الرسول » . وهو الرسول الذى تقوم عليه الساعة . ولذلك نجد خطاب الحق لرسوله دائما : « يا أيُّها الرُّسُول » أو : « يا أيُّها النبى » ، وهذا نوع من التكريم .

والحق يقول هنا : « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » . أى لا تحزن يا رسول الله من الذين يسارعون فى الكفر . وحين يخاطب الحق رسوله فى ألا يحزن ، علينا أن نعرف على ماذا يكون الحزن ؟ . سبحانه يوضح لرسوله : إياك أن تحزن لأنى معك فلن ينالك شر خصومك ولا يمكن أن أختارك رسولاً وأخذُلك ، إنهم لن ينالوا منك شيئاً .

وقد يكون حزن النبى صلى الله عليه وسلم حزناً من لون آخر ، اسمه الحزن المُتَسامِى الذى قال فيه الحق :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لأن الحق لو شاء أن يجعلهم مؤمنين لما جعل لديهم القدرة على الكفر .

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وهل الله يريد أعناقا ؟ لا . بل يريد قلوباً ؛ لأن سيطرة القُدرة بإمكانها أن تفعل ما تريد ، بدليل أن السماء والأرض والجبال وكل الكائنات أتت للخالق طائعة . فلا يمكن أن يتأبّى الكون على خالقه . والقدرة أفادت القهر وأفادت السيطرة والعزة والغلبة فى سائر الكون ، ولكن الله أحَب أن يأتى عبده - وهو السيد - للإيمان مختاراً ؛ لأن الإيمان الأول هو إيمان القهر والقدرة ، ولكن الإيمان الثانى هو إيمان المحبة .

وقد ضربنا من قبل المثل على ذلك ولنوضحه : هب أن عندك خادمين ربطت أحدهما فى سلسلة لأنك إن تركته قليلاً يهرب ، وعندما تريده تجذب السلسلة فيأتى ، إنه يأتى لسيطرة قُدرتك عليه والقهر منك ، أما الخادم الآخر فأنت تتركه حُرّاً ويأتيك من فور النداء . فأيهما أحب إليك ؟ لاشك أنك تحب الذى يجىء عن حُب لا عن قهر . وكل أجناس الكون مُسخَّرة بالقدرة ، وشاء الحق أن يجعل الإنسان مُختاراً لذلك قال :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

إذن فقد رفضت كل الأجناس حمل الأمانة . خوفا وإشفاقا من أنها قد لا تستطيع القيام بذلك . والحق يقول لرسوله : « لا يحزنك » فأمّا إذا كان الحزن بسبب الخوف على المنهج منهم ، فالحق ينصره ولن يمكنهم منه . وأما إن كان الخوف عليهم فلا ؛

لأنه سبحانه خلق الإنسان مختاراً غير مقهور على القيام بتعاليم المنهج ، وسبحانه يُحب أن يعرف من يأتيه حُباً وكرامة .

ويقول الحق لرسوله محمد صلّى الله عليه وسلم : « لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » .

وهذه رُبوبية التعبير ، فنحن نعلم أن السرعة تكون إلى الشىء ، لا فى الشىء كما قال الحق :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

ولكن هنا نجده يقول : « يسارعون فى الكفر » . ولو قال الحق : « يسارعون إلى الكفر » لكان قد ثبت لهم إيمان وبعد ذلك يذهبون إلى الكُفر ، لا . الحق يريد أن يوضح لنا : أنهم يسارعون فى دائرة الكفر . ويعلمنا أنهم فى البداية فى الكفر ، ويسارعون إلى كفر أشد . ونعرف أن « فى » فى القرآن نستطيع أن نضع من أجلها المجلدات . فقد قلنا من قبل قال الله تعالى : (سيروا فى الأرض) .

ولم يقل سبحانه سيروا على الأرض .

والحق سبحانه :وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

وهى ليست أموال المخاطبين ، ولكنها فى الأصل أموال السفهاء . ولكن سبحانه يبلغنا أن السُّفهاء غير مأمونين على المال ، ولذلك يأتى الحق بالوصىِّ والقيِّم على المال ويأمره أن يعتبر المال ماله حتى يحافظ عليه . ويأمره بألا يخزن المال ليأكل منه السَّفيه ؛ لأن المال إن أكل منه السُّفيه ودفع له الزكاة ، قد ينضب وَينْفد . لذلك قال الحق :

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

لم يقل ارزقوهم منها ، ذلك أنه سبحانه شاء أن يعلمنا أن الرزق مطمور فى رأس المال ويجب أن يتحرك رأس المال فى الحياة حتى لا ينقص بالنفقة ، وحتى لا تستهلكه الزكاة ، وحتى يبلغ السَّفيه رُشده ويجد المال قد نما . هذه بعض من معطيات « فى » . وهناك آية الصَّلب :

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾

(من الآية ٧١ سورة طه)

بعض المفسرين يقولون فى هذه الآية : « لأصلبنكم على جذوع النخل » ونقول : إن الذين قالوا ذلك لم يُفسّروا هذه الآية وكان يجب أن يقولوا فى تفسير ذلك :

لأصلبنكم على جذوع النخل تصليباً قوياً يدخل المصلوب فى المصلوب فيه . ومثال ذلك لو جئنا بعدو ثقاب وربطناه على الأصبع بخيط رفيع وأوثقنا الربط ، فعود الثقاب يغوص فى الأصبع حتى يصير وكأنه داخل الأصبع . وعندما يقول الحق : « ولأصلبنكم فى جذوع النخل » فيجب ألا نفهم هذا القول إلا على أساس أنه تصليب على جذوع النخل تصليباً قوياً يُدْخِلُ المصلوب فى المصلوب فيه . وتلك هى العِلّة فى وجود « فى » وعدم وجود « على » .

والحق يقول هنا : « لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » فكأن المسارعة إما أن تكون بـ « إلى » وإما أن تكون بـ « فى » . فإن كانت بـ « إلى » فهى انتقال إلى شىء لم يكن فيه ساعة بدء السرعة ، وإن كانت بـ « فى » فهى انتقال إلى عمق الشىء الذى كان فيه قبل أن يبدأ المسارعة .

« لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » فالإيمان محلّه القلب ، والإسلام محلّه الجوارح ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

إنهم يسارعون إلى الصف الأول فى الصلاة وهذا إسلام ، أما الإيمان فمحلّه القلب . إذن فالذين قالوا بأفواههم آمنا ، لهم أن يعرفوا أن منطقة الإيمان ليست الأفواه ولكنها القلوب . وهم قالوها بأفواههم وما مرّت على قلوبهم . وماداموا قد قالوا بأفواههم آمنا وما مرّت على قلوبهم فهؤلاء هم المنافقون ، ومعنى ذلك أنهم فى كل يوم ستظهر منهم أشياء تُدخِلهم فى الكفر ؛ لأنهم من البداية قد أبطنوا الكفر ، وبعد ذلك يسارعون فى مجال الكفر .

« من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا » هم إذن صنفان اثنان يسارعان فى الكفر ؛ المنافقون الذين قالوا بأفواههم آمنا ، والذين هادوا . ويصفهم الحق بقوله : « سماعون للكذب » وساعة تسمع مادة « السين والميم والعين » فهذا يعنى أن الأذن قد استقبلت صوتاً من مُصَوِّت ، هذا المُصوِّت إما أن يكون مُتكلماً بالكلام الحقّ فيجذ من الأذن الإيمانية استماعاً بإنصات ؛ ثم يتعدى الاستماع إلى القبول ؛ فيقول المؤمن : أنا استمعت إلى فلان ، لا يقصد أنه سمع منه فقط ولكن يقصد أنه سمع وقبل منه ما قال .

إننا نعلم أن كثيراً من الورعين يسمعون كذباً ، لكن الفيصل هو قبول الكذب أو رفضه . وليس المهم أن يكون الإنسان سامعاً فقط ، ولكن أن يصدق ما يسمع . ونرى فى الحياة اليومية إنساناً يريد أن يصلح شيئاً من أثاث منزله فيأتى بالأدوات اللازمة لذلك ، ويقال هنا عن هذا الرجل :« نجر فهو ناجر » ولا يقال له : « نجّار » ؛ لأن النجار هو من تكون حرفته النّجارة .

إذن كلمة : سامع للكذب لا تؤدى المعنى ، ولكن « سمّاع » تؤدى المعنى ، أى أن صناعته هى التسمّع ، وعندما يقول الحق : « سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك » أى ألِفُوا أن يقبلوا الكذب . وكيف يكون مزاج من يقبل الكذب ؟ . لا بد أن يكون مزاجاً مريضاً بالفطرة .

وما معنى الكذب هنا ومن هم السمّاعون ؟ إما أن يكون المقصود بهم الأحبار والرهبان الذين قالوا لأتباعهم كلاماً غير ذى سندٍ من واقع من أجل الحفاظ على مراكزهم . وإما أن يكونوا سمّاعين للكذب لا لصالحهم هم ، ولكن لصالح قوم

آخرين . كأنهم يقومون بالتجسس . والتجسس - كما نعلم - يكون بالعين أو بالأذن . وتقدمت هذه الوسائل فى زماننا حتى صار التجسس بالصوت والصورة . وكأن الحق يريد أن يبلغنا أنهم سماعون للكذب ، أى أنهم يسمعون لحساب قوم آخرين . والقوم الآخرون الذى يسمعون لهم هم القوم الذين أصابهم الكبر والغرور واستكبروا أن يحضروا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم فى الوقت نفسه لا يطيقون الانتظار ويريدون معرفة ماذا يقول رسول الله ، لذلك يرسلون الجواسيس إلى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم لينقلوا لهم .

أولئك السماعون للكذب هم سماعون لحساب قوم آخرين لم يأتوا إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبُّراً . وهؤلاء المتكبرون هم كبار اليهود ، وهم لا يذهبون إلى مجلس رسول الله حتى لا يضعف مركزهم أمام أتباعهم . وعندما يُنقل إليهم الكلام يحاولون تصويره على الغرض الذى يريدون ، ولذلك يقول عنهم الحق : « يُحرِّفون الكَلم من بعد مواضِعهِ » . أى أنهم يُحرِّفون الكلام بعد أن استقر فى مَواضعه ويستخرجونه منها فيهملونه ويزيلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله فيها وذلك بتغيير أحكام الله ، وقال الحق فيها أيضاً من قبل ذلك :

﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

أى أنهم حَرَّفُوا الكلام قبل أن يستقر . « سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه » وهم الذين يقولون لأتباعهم من جواسيس الاستماع إلى مجلس رسول الله : « إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا » . فكأنهم أقبلوا على النبى بهذا ، فإن أخذوا من رسول الله معنى يستطيعون تحريفه فعلوا . وإن لم يجدوا ما يحرفونه فعليهم الحذر .

ومن دراسة تاريخ القوانين الوضعية نعرف معنى السلطة الزمنية . فالقوانين التى تواضع عليها بشر ليحكموا بها نظام الحياة تأخرت فى الظهور إلى الواقع عن نظام الكهنة ، فقد كان الكهنة يَدَّعُون أن لهم صلة بالسماء ولذلك كان الحكم لهم ، أى أن التقنين فى الأصل هو حكم السماء والذى جعل الناس تتجه إلى وضع قوانين خاصة بهم أنهم جربوا الكهنة فوجدوهم يحكمون فى قضية ما حُكْماً . وفى القضية المشابهة يحكمون حُكْماً آخر . لقد كان كلام الكهنة مقبولا عندما ادعوا لأنفسهم

الانتساب إلى أحكام السماء . لكن عندما تضاربت أحكامهم خرج الناس على أحكام الكهنة ورفضوها ووضعوا لأنفسهم قوانين أخرى .

والحكاية التاريخية توضح لنا ذلك : فقد زَنَى أحد أتباع ملك فى العصر القديم وحاولوا أن يقيموا عليه الحد الموجود بالتوراة . لكن الملك قال للكهنة : لا أريد أن يُرجَم هذا الرجل وابحثوا عن حكم آخر .

ورضخ الكهنة لأمر الملك وقالوا : نُحَمِّم وجه الزَّانى - أى نُسَوِّد وجْهه بالحُمم وهو الفحم - ونجعله يركب حماراً ووجه إلى الخلف ونطوف به بين الناس بدلاً من الرَّجم . وهكذا أعطت السلطة الزمنية السياسية الأمر للسلطة الزمنية الدينية ليُغيِّروا فى القوانين . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حاولوا أن يستغلوا وجوده فى استصدار أحكام فيها هوادة ولين . وعرضوا عليه بعضا من القضايا من أجل ذلك ، فإن جاء الحكم بالتخفيف قبلوه ، وإن كان الحكم مُشدّداً لم يقبلوه . وتكررت مسألة الزّنا . وحاولوا الحصول على حكم مخفف من سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم .

وجاء رسولُ الله بالحكم الذى نزل من السماء وهو الرَّجم . ولكنهم قالوا للرَّجم لا . يكفى أن نجلده أربعين جلدة وأن نُسود وجهه وأن نجعله يركب حماراً ووجهه للخلف ويُطاف به . وهنا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أليس عندكم رجل صالح له علم بالكتاب ؟ وهنا صمتوا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تعرفون شابا أمرد أبيض أعور يسكن « فدك » يقال له : « ابن صوريا » . فقالوا : نعم ، هو أعلم يهود على وجه الأرض . فأمر الرسول بإحضاره ليرى الحُكم النازل فى الزّنا بالتوراة ، وجاء الرجل وناشده رسول الله بالذى لا إله إلا هو وبحق من أرسل موسىٰ ، وبحق من أنزَل التوراة على موسىٰ ، وبحق من فلق البحر ، وبحق من أغرق فرعون ، وبحق من ظللهم بالغمام . وأراد صلى الله عليه وسلم أن يُزلزل فيه كل باطل وأن يشحنه بالطاعة حتى ينطق الحق ، فقال ابن صوريا : نعم نجد الرَّجم للزّنا . وهنا سَبَّ اليهود الرجل الصالح .

لقد أرادوا أن يحصلوا على حُكم مُخفف من رسول الله ليُنقذوا الزانى صاحب المقام

العالى ، وكذلك الزانية ذات الحسب والنسب ؛ لذلك قال الحق على لسانهم : « إن أوتيتم هذا ». أى التخفيف المراد فخذوه، وإن وجدتم العقاب القاسى فاحذروه ولا تقبلوه .

إذن فهم لم يذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ابتغاء الحق ولكنهم يبتغون التخفيف . فإن وافق الحكم هواهم قالوا : إن محمداً هو الذى حَكَم ، ومن العجيب أنهم أعداء لمحمد وكافرون به . وبرغم ذلك يُحكِّمونه .

هذه الواقعة يرويها الإمام مسلم رضى الله عنه وهى : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بيهودى ويهودية قد زنيا فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء يهود فقال : ما تجدون فى التوراة على مَنْ زنى ؟ قالوا : نسوّدُ وجوههما ونحمّمهما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ، ويُطاف بهما ، قال : (فأتوا بالتوارة فاتلوها إن كنتم صادقين) قال : فجاءوا بها ، فقرأوها ، حتى إذا مرّ بآية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها ، فقال له عبدالله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: مُرْهُ فليرفع يده، فرفع يده فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرُجما ، قال عبدالله بن عمر : كنت فيمن رجمهما فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه »[1] .

إنهم يريدون الحكْم السهل الهين اللين . وقال البعض : إن سبب نزول هذه الآية هى قصة القَوَد . والقود هو القصاص .

وقصة القود فى إيجاز هى ـ كما رواها الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنه ـ أن طائفتين من اليهود هما بنو النضير وبنو قريظة كانتا قد تحاربتا فى الجاهلية ، فقهرت بنو النَّضير بنى قُريظة ، فكانت النَّضير وهى العزيزة إذا قتلت أحداً من بنى قُريظة وهى الذَّليلة لم يُقِيدوهم أى لم يعطوهم القاتل ليقتلوه بقتيلهم . إنما يعطونهم الديَّة . وكانت قُريظة إذا قَتَلت أحداً من بنى النَّضير لم يرضوا منهم إلا بالقود . فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة تحاكموا إليه فى هذا الأمر فحَكَم بالتَّسوية بينهم ، فسَاءَهم ذلك ولم يقبلوا . وأى قصة منها هى مؤكِّدة للمعنى .

---

(١) رواه مسلم .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » والفتنة هى التعذيب بالنار ، وسبحانه يقول :

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

والفتنة أيضاً هى الابتلاء والاختبار ، ويقال : « فتنت الذهب » أى وضعت الذهب فى بوتقة وحوّلته بالحرارة العالية من جسم صُلب إلى سائل حتى تستخلصه من المواد العالقة الشائبة التى فيه ليصير نقياً . والفتنة فى ذاتها ليست مذمومة . ولكن المذموم منها هو النتيجة التى تصل إليها ، أينجح الإنسان فيها أم يرسُب ، لأن الاختبارات التى يمر بها الإنسان كلها هى فتنة ، والذى ينجح تكون الفتنة بالنسبة إليه طيبة . والذى يرسُب ويفشل فالفتنة بالنسبة إليه سيئة . وعندما يريد الله فتنة بشر أى يريد اختبارهم : أيأتون طوعا واختياراً أم لا ؟

ومادام الحق سبحانه وتعالى أعطى للإنسان قدرة الاختيار حتى يُثبت صفة المحبوبية فسبحانه أراد ذلك ، ولا أحد بقادر أن يجعل الإنسان مقهوراً . وقد أراده الله مُختاراً وأن يبتلى وأن يختبر . اينجح أم يرسُب ، أيكون مُؤمناً أم كافراً :

« ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » . وجعل سبحانه ذلك قانونا لخلقه بمنتهى الوضوح ، وهناك جانب فى الإنسان مُسخّر ، وجانب آخر مُخيّر . « ومَن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » . أى أن أحداً لا يجرؤ أن يغير نواميس الكون ولن يغير الله نواميس الكون من أجل أى أحد ؛ لأن النواميس لا بد أن تسير كما أرادها الله حتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد عرفنا ما حدث فى أُحُد ؛ عندما تخاذل الرُّماة ولم يستمعوا إلى نصيحة القائد الأعلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أَغَيَّر الله سُنَّته من أجل وجود حبيبه معهم ؟ لا ، وانهزموا على رغم وجود رسول الله معهم ؛ لأن الله أراد للسُّنة الكونية أن تسير كما هى من أجل إصلاح الأمر . فلو فُرض أنهم انتصروا من أجل خاطر النبى ، ماذا يكون الموقف فى أوامره صلى الله عليه وسلم فيما بعد ؟ كان من الممكن أن يقول شخص منهم : « خالفناه وانتصرنا » . إذن لا بد لسُنَّة الله أن تُنَفَّذ .

﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٤١ سورة المائدة)

لماذا لم يرد الله أن يُطهِّر قلوبهم ؟ لأنهم منافقون . وفي قلب المنافق مرض . وعندما تأتى أحداث ينتفع بها المسلمون فالمنافق يزداد حِقداً ومَرضا لأنّ قلبه مُمتلىء بالغل ، ولا يريد الله تطهير قلب إنسان إلا أن يقبل على الله ولذلك قال تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وقال سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة آل عمران)

فهل عدم هداية الله لهم نشأت أولاً ، ثم نشأ الكُفر ، أو نشأ الكُفر منهم فجاء عدم الهداية ؟ نعلم أن عدم الهداية مرتبة على أنه ظالم أو كافر ، وقلنا من قبل: إن هناك إرادة كونية وإرادة شرعية . والإرادة الكونية هى ما يحدث فى كون الله . ولا شيء قد حدث في كون الله غصبا عن الله . والاختيار خلقه الله فى الإنسان ليصير الإنسان مُخيراً بين الكُفر والإيمان . ومادام الحق قد خلق الإنسان مُختاراً لهذا أو لذلك إذن فهو سبحانه مُريد كَوْنيًّا ما يصدر عن الإنسان اختياراً كفراً أو هدايةً . لكن أمُريد هو سبحانه ذلك شرعاً ؟ لا .

إن الشرع أمر سماوى إما أن يُنفِّذه العبد وإما أن يعصيه . ونعرف أن هناك أشياء مُرادة كونياً وأشياء مُرادة شرعيا . والمُراد الكونى هو الذى يكون : أما الإنسان فقد خلقه الله وله الاختيار ، فالذى يسرق لا يسرق غصبا عن الله ولكن ما أعطاه له الله من اختيار ومن طاقة ، إما أن يوجهها إلى الخير وإما إلى الشر .

ونحن حين ننظر إلى الساعة التى نضعها حول المعصم وقد صنعها الصانع صالحة

لأن يديرها الإنسان على توقيت أى بلد ، فهل هذا يتم غصبا عن الصانع ؟ لا . وكذلك جهاز « التليفزيون » ؛ إن أذعنا فيه برامج دينية فهو صالح للهدف ، وإن أذعنا فيه حفلة راقصة فهو صالح لذلك أيضا . والذى صنع التليفزيون جعله صالحاً لهذا ولذاك ، المهم هو توجيه الطاقة وكذلك الإنسان . والإرادة الكونية هى كل ما يكون فى ملك الله ، والإرادة الشرعية هى كل ما يكون فى شرع الله « افعل ولا تفعل » . ومادام هناك أمرٌ كونى وأمر شرعى فالكون قد أوجده الله لخدمة المؤمن والكافر والعاصى ، لكن الأمر الشرعى جعله الله للمؤمن .

إذن فإيمان المؤمن أراده الله كونا ، لأنه سبحانه قد وضع الإيمان منهجا ، وأراد الله إيمان المؤمن شرعا . وكفر الكافر لم يتم غصبا عن الله . ولكن الإنسان بخلْقِه مختاراً . صار كُفره أمراً كونياً ، ولكنه غير مُراد شرعاً ، فكفر الكافر مُراد كونا غير مُراد شرعا . وإيمان الكافر غير مُراد كوناً وكفر المؤمن غير مُراد كونا . وبهذا نكون أمام أربعة أقسام فى المُراد كونا وشرعا . وهذه هى القسمة العقلية .

إذن من يُرِد الله فتنته كوناً فلا راد لإرادة الله ؛ فإذا لم يطع الشرع ، فذلك لأنه مخلوق صالح للطاعة وصالح للمعصية .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلىٰ ـ الوالد يعطى لابنه جنيها ويقول له : أنت حُر فى هذا المبلغ فإن اشتريت مصحفا أو كتاب دين أو شيئاً تأكله أنت وإخوتك فسأكافئك وأستأمنك على أشياء كثيرة . أما إن اشتريت ورق اللعب المُسمّى « كوتشينة » فسأغضب منك .

وحين يذهب الولد ليشترى ورق اللعب المُسمّى « كوتشينة » ، هل اشترى ذلك غصبا عن أبيه ؟ لا . لكن الولد يصبح غير محبوب من أبيه . هذا هو الفارق بين المُراد كونا والمُراد شرعا . وبين المُراد كونا لا شرعا . والمُراد شرعا لا كونا .

« أولئك الذين لم يَرِد الله أن يُطهِّر قلوبهم » كان ذلك كونا ؛ لأنه سبحانه خلقهم قابلين للتطهير وقابلين لغيره ، فإن فعلوا أى شىء فهم لن يفعلوه غَصبا عن الله ؛ لذلك يذيل الحق الآية : « لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » فكأن

معنى ذلك أن فى قلوبهم أشياء ضد الطهارة ، ولهم فى الدنيا خزى . والخزى يطلق على الفضيحة ويطلق على الاستحياء ، والمعنيان يلتقيان . وهنا فى مجال هذه الآية : أى خزى وأى فتنة ؟ إنها فتنتان ؛ المنافقون واليهود . وكان المنافقون كلما فعلوا شيئاً ينفضح . وعندما يبيتون أى شىء فإن الله يخبر رسوله بما يبيتون .

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة محمد)

وكذلك الذين هادوا : يأتيهم الخزى أى الافتضاح ، أى أن يصيروا إلى المُسترذل بعد أن كانوا فى المُستحسن . والرسول صلى الله عليه وسلم دخل المدينة واليهود سادة هذه البقعة ؛ سادتها علماً لأنهم أهل كتاب ، أما الأوس والخزرج فأميون لا يعرفون شيئاً. وكان اقتصاد المدينة فى أيدى اليهود، من مال وصنعة وزراعة. وعنجهية الجاه. وعندما يأتى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يجدهم السادة ، ثم ينفضح أمرهم وكذبهم ، ويتم إجلاؤهم ، وتُسبى نساؤهم ويُقتل بعضهم . وعندما يدبرون كيدا لرسول الله ، يفضحهم الله ، وكل ذلك خزى ، وليس الخزى هو الجزاء الوحيد لهم ، بل يلقون فى الآخرة عذاباً أليماً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وفى اللغة ألفاظ مفردة ، مثال : « سجنجل » وتفتح القاموس فتجد معناها